آرثر رامبو

فصل في الجحيم

ترجمة
رمسيس يونان

Gene



فصل في الجحيم

* اسم المؤلف : آرثر رامبو.

* اسم المترجم : رمسيس يونان.

* عنوان الكتاب : فصل في الجحيم.

* الناشر : دار التنوير للطباعة والنشر - بيروت.

* الطبعة الثانية ، 1998.

* التنضيد الضوئي : بيروت برس.

* تدقيق النص : محمد أحمد الحسيني.

* تصميم الغلاف : سلمى الفاروقي.

* خطوط الغلاف : مصطفى العمري.

* أفلام الغلاف : كامل جرافيك.

الرسوم: بشار



مقدمة

عرفت رمسيس يونان في عنفوان شبابه بمناسبة انتخابات سنة ١٩٤٢ لمجلس النواب. عرفته فنانا ثوريا يأبى المحاكاة الواقعية والانطباعية وغيرهما من المدارس الفنية السائدة في مصر حينذاك. كما عرفته كاتبا ثوريا يرفض أساليب الأدب المألوفة عربية كانت أم تقليداً للغرب، ومفكراً سياسياً ثورياً لا يقبل الشعارات السياسية في الاحزاب المشروعة، ثائراً على الثورية نفسها، باحثاً باستمرار عن موقف في الفن والأدب والسياسة يجد نفسه فيه غير منافق ولا مفتر ولا منقاد. هذا هو رمسيس كما أذكره — انسان مخلص أمين إلى حد التعصب لما يراه حقاً وواجباً، انسان غير مكترث بأهواء «الموضة» الثقافية قانع بالفقر والوحشة في سبيل رؤيا ذاتية أصيلة من املاء ضميره الحي.

لوحاته سجل لمغامرة فنية بين أدغال الغيب وكهوف النفس الدفينة، ومع ذلك فإن اهتماماته الواعية بالعمل السياسي وبالكتابة كانت دائما متصلة بواقع بلاده وبقضايا بناء مجتمع عادل. لقد عرف قدر الثروة الكامنة في أصالة مصر في نفس الوقت الذي استطاع فيه أن يزن ما يمكن أن يثريها من مؤثرات الغرب المتدفقة على وطنه والتي ذهبت بعقول بعض مثقفيها وأفعمتهم حتى نضبت ينابيع الابداع الأصيل في نفوسهم. كان رمسيس كغيره من أبناء جيله يحاول أن يحافظ على التوازن الدقيق الصعب بين الأصالة والتجديد في نفس الوقت الذي كان يبحث فيه عن ذاته من خلال فن التصوير والصحافة الثقافية الرفيعة والترجمة الواعية لما

يفجّر مناهل جديدة في أعماق أصالته المصرية، كما التزم في ترجماته دائماً بالدقة والبلاغة في آنٍ واحد حتى ينقل بأمانة تامة ما يريد أن يغرسه في تربة الوعي الذي ورثه عن أجداده.

وكان هذا هو المعيار الذي التزم به في اختياره لما يترجمه من أعمال اندريه مالرو وبول اليوار وغيرهما مّمنْ شكّلوا حساسية القرن العشرين.

ثمّ مات رمسيس كهلاً قبل أن يبذل قصارى جهده مخلّفاً وراءه أعمالاً فنية تُعتَبر بمثابة وصية فلسفية لأجيال مصر الصاعدة، وكتابات من المقال والشعر تُعتَبر رحلات كشف لَمنْ يريد أن يسبر غور نفوس المثقفين المصريين في العقد القلق المستمر الذي امتد من أوائل الحرب العالمية الثانية إلى ما بعد حرب فلسطين الأولى، أو بعبارة أخرى من الولوع بالتفكير الثوري الدولي الذي لازم الحرب الأهلية في اسبانيا إلى البحث عن الذات والصراع من أجل الوجود المحلي.

ولقد تضمن ما خلّفه لنا رمسيس يونان ترجمة مخطوطة لم تُنشَر في حياته للقصيدة النثرية التي ختم بها آرثور رامبو حياته الأدبية قبل أن يكفّ عن الكتابة إلى أن قضى نحبه. تُرى لماذا اختار رمسيس هذا النص الصعب الأليم الذي يغوص فيه الشاعر الفرنسي إلى أعماق حياة قلقة آثمة معقدة في البحث عن معنى للحياة مجرِّداً نفسه من كل لَبْس ورياء ومغالطة كي يرى الحقيقة مهما آلمته؟ وإني لأعتقد أن هذا المنهج في بحث الشاعر هو نفس ما اتبعه رمسيس في التصوير، ولوحاته كلها لا تخاطبنا إلاّ من عمق غائر دفين تجرّدت فيه النفس عن كل ما يخفيها عن نفسها، وصاحت صيحتها بأمانة مطلقة وأمل مطلق تولّد من مجابهة الناس والألم والذات بصدق وأمانة. والصورة مثلها مثل القصيدة، اعتراف ولكنهما اعترافان للذات لا لما هو خارج عنها. إذ لا يهم المصور هنا كما لم يهم الشاعر هناك

سرى الصدق ـ فلا يهمها نظارة ولا قراء، ومع ذلك ففنها يخاطب كل فرد حي واجهته ألغاز الفناء وحيرة الوجود.

هذا في رأيي هو ما دفع رمسيس لترجمة «فصل في الجحيم» لـآرثور رامبو. وحتى نفهم ولع رمسيس بهذا النص لرامبو يجدر بنا أن نعرف ما جعل الشاعر يختم حياته الأدبية بهذا النص، ثم مال به إلى التجارة والمغامرة في الحبشة والصومال دون أن يلتفت ولو مرة واحدة لماضيه كشاعر شاب فذ.

* * *

ولد آرثور رامبو سنة ١٨٥٤ في مدينة صغيرة شمال شرقي فرنسا اسمها شارلفيل حيث تعلّم بمدرستيها الابتدائية والثانوية، ولكنه سرعان ما ملّ دراسته وأخذ يهيم على وجهه في الأرياف هارباً من المدرسة ومن جو الأسرة. كان أبوه ضابطاً متقاعداً يعيش في قلق مستمر بجوار زوجته وهي فلاحة غنية متزمتة التدين محدودة الثقافة. وذات يوم هجر الأب منزله ولم يره أحد من أسرته بعد ذلك. أمّا الصبي النابغ آرثور فكان يكتب الشعر حيناً ويقرأ مؤلفات الفلاسفة الاشتراكيين، حيناً آخر، وكثيراً ما كان يختفي أياماً بأكملها متجولاً في القرى والريف هارباً من ملل حياته. ومع ذلك فقد أشعل في نفسه شعلة الفكر تعرّفه في المدرسة على مدرس شاب اسمه جورج ايزامبار كان يعطيه كتب الشعراء والفلاسفة ليقرأها ويثير خياله بالمناقشات في الدين والجنس والسياسة. وكان ذلك سبباً دفعه للهروب مرة أخرى إلى باريس سنة ١٨٧١ أي بعد سقوط الامبراطور نابليون الثالث عقب هزيمة جيوشه على يد الجيوش البروسية. وأحسّ رامبو بحماسة شديدة لحكومة الكومون La Commune الاشتراكية التي عاشت حياة قصيرة في شوارع باريس المهزومة المحاصرة،

وأخذ يكتب شعراً كله ثورة ضد الأوضاع السياسية وتمجيد للصراع الثوري. ثمّ أرغمته أمه على العودة إلى البيت فعاد مرغمًا وقلمه يقطر شعراً، ثم اكتشف في نفسه ميولاً جنسية تضعه على هامش المجتمع آنذاك بل تجعله ينفر من كل علاقة عائلية. وتتوق نفسه رغم شبابه إلى الهروب مرة أخرى واللجوء إلى الحانات وحياة الشاردين. وكتب اشهر قصيدة له في ذلك الوقت «القارب الثمل» ودوّن فيها كل ما في قلبه من حيرة وثورة وشعور بالاثم والتماس الحرية والتحرر. وكان ذلك أيضاً هو الوقت الذي عرف فيه بول فرلين وكان رامبو قد أرسل إليه نسخة من «القارب الثمل». وفجأة عشق فرلين القصيدة وصاحبها عشقاً دفعه إلى أن يضرب بكل شيء مقدس عرض الحائط ـ فهجر أسرته هو بدوره بل هجر عروسه الفتية ليشرد مع رامبو شروداً في صداقة صاخبة ذهبت بهما إلى طرقات المدن يتمتمان الأشعار ويثملان ويتسامران معاً بعيدين عن قيود الأسرة والمجتمع، يزوران انجلترا حيناً وبلجيكا حيناً، يتشاجران حيناً ويتصالحان حيناً آخر كل منهما مصمم على هدم الاخر رغم ما بينهما من عشق عميق بل بسببه. وفي ليلة من الثمل والعتاب اللذين منبتهما الحب يصوِّب فرلين مسدساً إلى صديقه ولكن الرصاصة لا تصيب مقتلاً منه بل تخدش كفه فيُقبَض على فرلين ويُحكَم عليه بسنتين في السجن، ويعود رامبو إلى أمه وبلدته بائساً مستاء يبحث من خلال قصيدة نثرية طويلة عن سر ذلك الشيطان اللعين الذي يدفعه إلى أدغال الشعر والإثم والهروب والصخب دفعاً. وبعد أن كتب اعترافه هذا سنة ١٨٧٣ انقطع عن الأدب انقطاعاً نهائياً، وقام بسلسلة من الرحلات العقيمة بعيداً عن ذكريات مأساة شبابه. بدأ بألمانيا حيث حاول أن يتعلّم الألمانية وأن يعمل تاجراً، ثمّ ذهب إلى هولاندا حيث تطوّع جندياً بسيطاً في الجيش وأُرسِل إلى جزر الهند الشرقية (أندونيسيا الآن) ولم يطق حياة الجندية في الشرق فهرب وتطوّع بحاراً في سفينة شراعية كانت راسية في ميناء باتافيا (جاكارتا اليوم) وأبحر عليها حتى عاد إلى فرنسا حيث قضى ليلة رأس سنة ١٨٧٧ مع أسرته في شارلفيل.

ثم دفعه شيطان الهرب ثانية، فأخذ يهيم على وجهه في النمسا وهولاندا والسويد وسويسرا، تارة عاملاً وتارة عاطلاً، تارة راكباً وأخرى ماشياً ودائماً جائعاً. وفي نوفمبر سنة ١٨٧٨ أبحر إلى جزيرة قبرص حيث عمل ملاحظاً لمقاول بناء، ومرض بالتيفوئيد فعاد إلى فرنسا، ثمّ أبحر إلى الاسكندرية ولم يجدعملاً في مصر (ولكن يبدو أنه وصل إلى الأقصر بدليل أن اسمه منقوش هناك على أحد أعمدة معبد الأقصر)، فأبحر إلى عدن حيث عمل في متجر فرنسي ومن هناك أُرسِل إلى مدينة هرر في أثيوبيا ليفتح فرعاً لهذا المتجر. وتعلّم العربية والسواحلية وبدأ يعلّم نفسه فنون الهندسة من كتب كانت ترسلها إليه أمه من فرنسا بين حين وآخر. وفي سنة ١٨٨٢ سمح له أصحاب الشركة التي كان يعمل فيها أن يذهب منفرداً إلى صحراء الأجادين، وأن يكتب تقريراً علمياً عنها فكتبه بالفعل وأرسله إلى جمعية الجغرافيا الفرنسية. ولعلّ هذا التقرير (فيما عدا الخطابات التي كان يرسلها إلى أسرته) هو الشيء الوحيد الذي كتبه بعد ان هجر الأدب. ثم تغيّر مجرى حياته من جديد، واتصل بالامبراطور الأثيوبي منيليك الأكبر، وأعدّ القوافل ليمدّ الأمبراطور بالمدافع والبنادق وقيل أيضاً أنه كان يتاجر في الرقيق مع عرب السواحل والامبراطور الحبشي الذي لم يدفع ثمنهم! والمهم أنه لم يترك مجالاً ليثبت فيه قدرته على العمل والنجاح، ولكن سرعان ما أصيب بآلام شديدة في ساقه اضطرته للرحيل إلى فرنسا، وما أن وصل مرسيليا حتى دخل المستشفى حيث بُترت ساقه ثمّ مات بالمستشفى يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٨٩١ في السابعة والثلاثين من عمره.

حياة قصيرة حائرة ثائرة ــ شاعر ملهم يصبح جندياً فتاجراً فرحالة، وشيطان الهروب يحثّه باستمرار على تغيير مهنته والبحث عن المستحيل والغريب في حين أن شعلة المستحيل تحترق داخل نفسه. تُرى عَمَّ كان يبحث؟ الجواب السريع هو نفسه، ولكن الواقع أن بحث هذا الشاعر الذي أثر في كل الشعر الأوروبي الحديث هو بحث عن أسلوب

في الحياة يسمح له بمطلق الحرية ومطلق الصدق. وربما المهم في كل ذلك أنه كان يبحث عن الصدق من خلال صيغ مختلفة خانه كل منها بدوره، لأن الصدق بالنسبة لرامبو لم يكن المواجهة الصريحة مع الواقع وإنما هو الغوص في أعماق النفس والبحث فيها عن مناظر لم ترها العين المجردة، وعن أصوات لم تسمعها الأذن. فالشعر عنده سجل لحلم خاص. ألم يقل إن الحانة التي كان يراها على ضفاف ترعة عكرة الماء هي مسجد شامخ يطل على نهر متألق؟ وكان يقول أيضاً «أما العالم متى خرجت منه فماذا يحدث له؟ لا شيء قطعاً يتغير من مظاهره الحالية» فعالم الحلم عنده عالم مكتمل، له منطق غير منطقنا وقواعد غير قواعدنا وفيه ضرورة توحي بحتمية أحداث الحلم. ولّما اقترن حلمه بالكلمة المنطوقة جعل لغته الشعرية تمزج بين الحواس. فبدأ قصيدة مشهورة باعطاء ألوان لأصوات اللين في اللغة وهذا ما يذهب بنا إلى القول بأن منطق الكلام لم يكن فعّالاً عند رامبو بقدر ما نفعه منطق الأحداث والمحاورات في حلم كمين في النفس. فالبحث على هذا النحو عن صدق مطلق يختلف فيه رامبو الشاعر (والجندي وتاجر السلاح والرّحالة والشارد) عما اصطلح عليه المجتمع البشري في محاوراته وتأملاته المألوفة. ومع ذلك فهو أقوى مؤثر (مع فرلين) على مدرسة الشعراء الرمزيين في فرنسا.

ولا يفوت أحداً أن مثل هذا المنطق الحالم قد يكون عائقاً لفهم القارىء وتجاوبه مع القصيدة اللذين هما أساس كل اتصال مفيد. ولكن هناك مع ذلك لغة ورّثها رامبو لخلفه هي لغة الايحاء اللفظي الموسيقي التي تُعتبر أساس الاتصال بين الشاعر والقارىء، أي اتصال بين حساسيتين حيث تكون الأداة هي الايحاء من خلال موسيقى الألفاظ وشاعرية الصور. ومن ثم الاتصال الوثيق، في رأي واضعي نظريات الشعر الرمزي، بين الشعر والموسيقى. ولعلّ بول كلوديل (Claudel) استطاع أن يبلور هذه الفكرة في مقدمته لديوان شعر رامبو الذي نشر بعد وفاته عندما قال: «إن اللغة الموجودة في وعينا تتخذ

هنا قيمة بوصفها أداة تعبير بقدر أقل مما هي إشارة، فان الكلمات العشوائية التي تطفو إلى سطح العقل واللازمة الشعرية والعودة المتكررة لعبارة ما والرجوع المستمر للفكرة المتسلطة، كل ذلك يؤلّف معاً نوعاً من التلاوة المرتلة التي تجمِّد سيولة الوعي. وعندئذٍ تسقط ظلال الأشياء مباشرة على خيالنا وتنساب ممتزجة بتألقها وتلونها كقوس قزح».

ومن ثمّ نشأ، في فرنسا على الأقل، الشعر الحر الذي أصبح بمثابة تطبيق مكتوب لهذه المغامرة في دنيا الوعي والخيال.

* * *

ونعود نتساءل: تُرَى ما الذي دفع رمسيس المفكر المستنير الفنان إلى ترجمة هذا النص؟ من الممكن أن يُجاب على هذا التساؤل بأن دافعه إلى ذلك هو التمسك بالصدق المطلق ــ مع نفسه ومع فنه. وهو صدق لا تشوبهمساومة ولو أدّى إلى الغموض في الاتصال بالغير. ولعلّ هذا الصدق أو البحث عنه على الأقل، هو الينبوع الحي للحركة المحدثة في العالم، فهو بمثابة رومانتيكية جديدة قد تصبو إلى المستحيل كما فعلت سابقتها. أمّا تاريخ الشعر العالمي قبل ذلك في كل أنحاء العالم فهو بريء من تلك البدعة الرومانتيكية، إذْ من عصر الملاحم وحتى حركة الكلاسيكية الجديدة كان الشعر الأوروبي بكل لغاته يهتم بالصنعة اهتماماً يعلو كل اهتمامات الصدق أو الالهام.

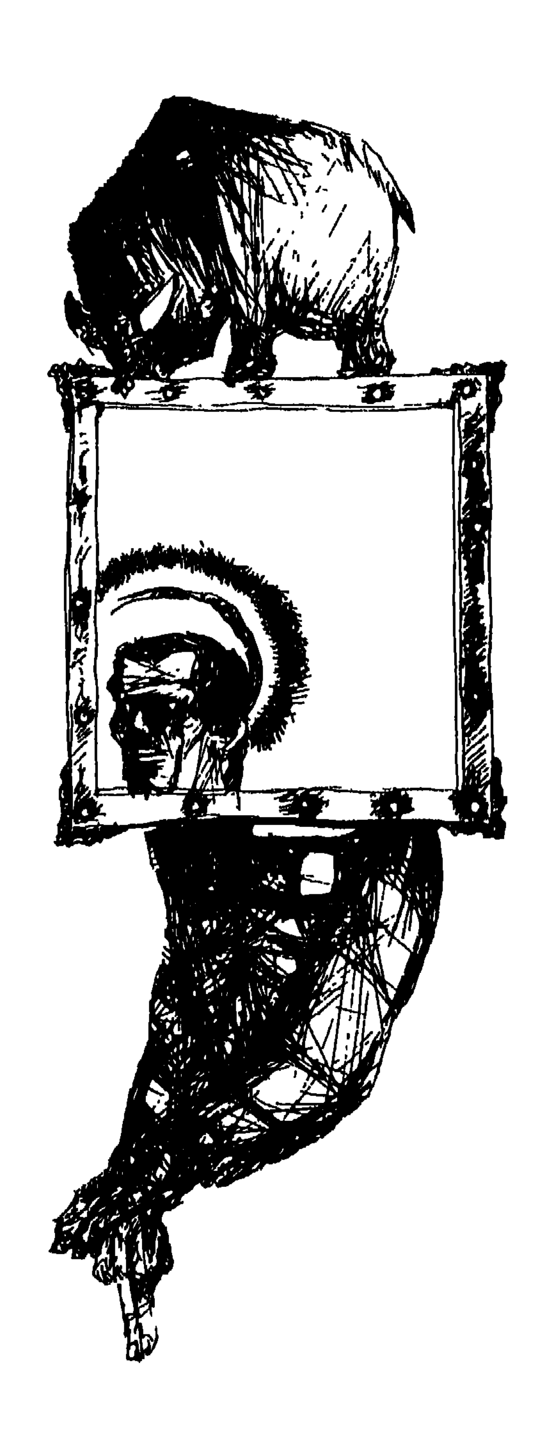
وكذلك فعل الشعر العربي خاصة عندما أُغرِم بالغزل ووصف الأطلال واهتم بتقنين البحور الستة عشر. وهكذا فعل أيضاً الشعر

الياباني في «الهايكو»، وشعراء افريقيا جنوب الصحراء في ملاحمهم ومداثحهم التي تلتزم أوضاعاً نظمية متفقاً عليها.

فصرخة الصدق كانت في كل التقاليد الشعرية تلتزم بانضباط النظم وتصب في مقامات الصيغ الشعرية إلّا في عهدين: عهد الرومانتيكيات الأوروبية، وفي عصر ما بعد رامبو في العالم أجمع حين واجه شعراء عصرنا هذا مخاطر الصدق المطلق الذي قد يصل إلى غموض، كما واجهها رمسيس في لوحاته التي لعبت دور الريادة في فن التصوير المصري المعاصر.

..

مجدي وهبه



في سالف الأيام، ما لم تخني الذاكرة، كانت حياتي وليمة تتفتح فيها كل القلوب، وتسيل كل الخمور.

وذات مساء، أقعدت الجمال على ركبتيّ ــ فألفيته مرّاً ــ فهجوته، وتسلّحت ضد العدالة.

وهربت. أيتها الساحرات، أيها البؤس، أيها البغض، أنتم مستودع كنزي!

وتوصّلت إلى محو كل أمل انساني في نفسي. كل بهجة، أخنقها، ووثبْت وَثْبة وحش مفترس.

ودعوتُ الجلادين كي أقضم، ساعة فنائي، خشب بنادقهم. ودعوت البلايا كي تكتم أنفاسي بالرمل والدم. كان النحس إلهي. واستلقيت في الوحل. وتجففت بهواء الجريمة. وكثيراً ما داعبت الجنون.

ولم يجلب لي الربيع سوى ضحكة الأبله الشنعاء.

لكن، من عهد قريب، إذْ وجدت أني موشك على لفظ آخر شهقاتي، فكرتُ في البحث عن مفتاح وليمتي السابقة، علّني استردُّ شهيتي.

المحبة هي هذا المفتاح ــ هذا الوحي يثبت أني كنت أحلم!

«ستظل ضبعاً الخ...» هكذا هتف بي الشيطان الذي توّجني بأزهار الخشخاش الجميلة. «أدرك الموت بكل شهواتك، وأنانيتك،

وجميع الآثام التي لا تُغتَفر».

آه! لقد تحمّلت أكثر مما يُطَاق: ــ ولكن، أيا ابليس العزيز، أتوسّل إليك، نظرة أقل شزراً! وفي انتظار الخسائس الصغيرة المتوقعة، انتزع لك، أنت يا مَنْ تحب في الكاتب التجرّد من مَلَكَات الوصف أو الارشاد، هذه الصفحات البشعة القليلة من كراسة لعين رجيم.

عرق خبيث

ورثت عن أجدادي الغاليين العين الزرقاء البيضاء، والعقل الضيق، والخرافة في القتال، إني أرى ملبسي لا يقل عن ملبسهم بربرية. لكني لا أضع دهنا في شعري.

كان الغاليّون في عصرهم أقل الناس براعة في سلخ جلد الحيوان وحرق الحشائش.

وعنهم أخذت: الوثنية والولع بانتهاك الحرمات، بل كل الرذائل، الغضب والشبق، ـ يا لروعة الشبق؟ ـ وعلى الأخص الكذب والكسل.

جميع الحرف تفزعني. السادة والعمال، جميعهم فلاحون، شائنون. اليد ذات اليراع لا تفضل اليد قائدة المحراث ـ يا له من قرن يدوي! ـ لن تكون لي يدي. وبعد، لا يقف الامتهان عند حد. ثمّ إن أمانة الشحاذة تفجعني. والمجرمون كريهون كالخصيان: أمّا أنا، فلم أمس، وكل هذا لديّ سواء.

ولكن! مَنْ الذى جعل لساني من الغدر حتى لقد أراد وصان لليوم كسلي؟ فدون أن استخدم في سبيل العيش حتى جسدي، ومع بطالتي التي تفوق بطالة الضفدع، عشت في كل مكان. ما من اسرة في أوروبا لا أعرفها

ـ أعني الأسرات، كأسرتي، التي تدين بكل شيء لاعلان حقوق الانسان. ـ عرفت جميع أبناء الأسرات!

* * *

لو أن لي أشباه سالفين في أي وقت كان من تاريخ فرنسا! لكن كلا البتة.

ومن الواضح أني كنت دائمًا من سلالة منحطة. فالتمرد يسمو على ادراكي. ولم تهبّ سلالتي قط إلاّ لتنهب. فعل الذئاب مع الفريسة التي لم تقتنصها.

إني أحفظ تاريخ فرنسا، بنت الكنيسة البكر. وكان بوسعي، أفّاقاً، أن أحجّ إلى الأرض المقدسة؟ وفي ذهني طرق تتخلل سهول بافاريا، وصور من بيزنطة، وقلاع في أورشليم، التسبيح بمريم والتحنن على المصلوب يستيقظان في قلبي وسط ألف من المفاتن الدنيوية ـ إني قاعد، مجزوماً، على القدور المحطمة وأوراق القريض. بجوار حائط نخرته الشمس ـ وكان بوسعي، متشرداً، أن أنزع بعد ذلك إلى العراء تحت سماء ألمانيا.

آه! وأيضاً: أرقص السبت بمهرجان السحرة في ساحة حمراء وسط الأحراج مع عجائز وأطفال.

ولا تذهب ذاكرتي إلى أبعد من هذه الأرض ولا من المسيحية. لن أنتهي من رؤية نفسي في ذلك الماضي.

لكني كنت دائماً وحيداً، بلا أسرة، بل بأي لسان كنت أتكلم؟ لا أتصور نفسي قط في مجلس المسيح؟ ولا في مجلس الأرباب ـ ممثلي المسيح.

وماذا كنت في القرن الماضي. لم أفق لنفسي إلاّ اليوم. لم يعد ثمة أفّاقون ولا حروب غامضة. لقد غمرت السلالة المنحطة سطح الأرض ـ الشعب، كما يقولون، والعقل، الأمّة والعلم.

يا للعلم! لقد بدأوا من جديد كلّ شيء. للجسد والروح، ـ القربان المقدس، ـ لدينا الطب والفلسفة، ـ وصفات العجائز والأهازيج الشعبية مصنفة مرتبة. ثمّ تسليات الأمراء والألعاب التي حرّموها! الجغرافيا، والكسموجغرافيا، والميكانيكا، والكيمياء.

العلم، الحسب الجديد، التقدم. الدنيا تسير! فلماذا لا تدور؟

إنها رؤيا الأعداد. إننا نسير نحو الروح. هذا محقق، هي نبوّة، ما أقول. إني أفهم، ولكني إذْ لا أستطيع الافصاح بغير عبارات وثنية، وددت الصمت.

• • •

الدم الوثني يعود! الروح يقترب، فلم لا يسندني المسيح بأن يهبني النبل والحرية؟ لكن واأسفاه، لقد ولىّ الانجيل!! الانجيل.

الانجيل.

انتظر الله في نهم. إني من سلالة منحطة منذ الأزل.

ها أنذا عند طرف فرنسا. فلتشعل الأنوار في المدن. لقد انقضى يومي؟ سأهجر أوروبا. هواء البحر سيكوي رئتي، وستلوّح بشرتي شمس المهجر. سوف أعوم، وامضغ العشب، واصيد، وأدخن على الأخص؟. وأنهل الخمور المتقدة كمعدن منصهر، — مثلما كان يفعل أجدادي حول اللهب.

وسأعود، بأطراف من حديد، ببشرة سمراء، ومقلة محتدمة: ومن سحنتي سيحكمون أني من سلالة قوية. سأملك الذهب: سأنعم بالفراغ وأبطش. إن النساء ليحدبن على أولئك المقعدين المفترسين العائدين من البلدان الحارة. وسيصبح لي شأن في السياسة. سأنجو.

أمّا الآن فعليّ اللعنة، إني أفزع من الوطن. ولا أفضلَ لي من نومة الثمل على شاطىء البحر.

* * *

لا رحيل. - فلأعذ من حيث أتيت، مُحمَّلاً بإثمي، الاثم الذي مدّ بجذوره جالبة الشقاء بجواري، مذْ بلغت سن الرشد — والذي يصعد إلى السماء، فيقهرني ويوقعني ويجرّني.

بقية من البراءة وبقية من الوجل. هكذا قيل. لا ينبغي أن احمل إلى العالم مكارهي وخسائسي.

فلنتقدم! لنحمل العبء ونسير نحو الصحراء والسأم والضجر.

لَمنْ اكري نفسي؟ أي دابة ينبغي أن اعبد؟ على أي صورة مقدسة ينبغي أن اهجم؟ أي قلوب سأحطم؟ باي اكذوبة يجب أن استمسك؟ — في أي دماء عليّ أن أمشي؟

الأحرى تجنب العدالة. — الحياة الشاقة والاستجلاف المحض— بل لأرفع بيد ضامرة غطاء التابوت، واقبع، واختنق. ولذلك لن أعرف الشيخوخة ولا الأخطار: الرعب ليس فرنسياً.

— آه! إني من الخذلان حتى لأعرض على أي صورة مقدسة صبوتي للكمال.

يا لتفانيّ! يا لمحبتي الرائعة! وفي هذه الدنيا مع ذلك! De profundis Domine، يا لي من أحمق!

* * *

اعجبت، وأنا بعد صبي، بالعاصي العنيد الذي ما تبرح أبواب المعاقل أن توصد عليه من جديد؟ زرت الحانات والفنادق التي لعلّه قد باركها باقامته ورأيت بفكرته السماء الزرقاء والعمل المزدهر في الحقول؟

واستنشقتُ رائحة الشؤم الذي يحيط به في المدن. كان يفوق القديس قوة والرحّالة دراية ــ وهو، هو وحده! الشاهد على حكمته ومجده.

بغير مأوى ولا ملبس ولا قوت، آفقاً في ليالي الشتاء، كنت أسمع صوتاً يأخذ بقلبي المجمد: «أهذا ضعف أم قوة: هاك، إنه لقوة. إنك لا تعلم إلى أين ولا لماذا تسير، فاقتحمْ كل الأبواب، واستجبْ لكل نداء. إنك لن تقتل أكثر مما لو كنت جثة هامدة». وفي الصباح كانت مقلتاي من التيهان ومحيّاي من الشحوب، حتى لربما لم يبصرني أولئك الذين قابلتهم.

وفي المدن بدا لي الوحل فجأة أحمر وأسود، كمرآة حين يطوف المصباح في الغرفة المجاورة، أو ككنز في غابة. فصحت ما أسعد الطالع، ورأيت في السماء بحراً من اللهب والدخان، وعلى يميني ويساري، الخيرات جميعاً تحترق وتهدد كألف مليون رعد.

بيد أني حُرمت القصف وصحبة النساء. بل ما من رفيق. رأيت نفسي قبالة حشد هائج، وأمامي شرذمة الجلادين؟ أبكي البلية التي ما كانوا ليستطيعون فهمها غافراً لهم! ــ مثل جان دارك! ــ «أيها الكهنة والاساتذة والأسياد، إنكم لتضلون إذْ تسلمونني للقضاء. ما كنت قط من هذا الشعب؟ وما كنت قط مسيحياً؟ إنما أنا من السلالة التي تغني وقت المحنة؟ ولست أفهم القوانين؟ ولا حسّ خلقياً لديّ، إني وحش همج: أتكلم لتضلون».

أجل، إن عينيّ لموصدتان عن نوركم. إني وحش، إني بربريٌ. ولكن كان يمكن أن أنجو. امّا أنتم فبرابرة زائفون، أنتم المعتوهون المفترسون الجشعون. أيها التاجر، إنك بربريٌّ؟ أيها

القاضي، إنك بربريٌ؟ أيها القائد، إنك بربريٌ؟ أيها القيصر، أيها البرص المزمن، إنك بربريٌ ولقد شربت من خمر مهرَّب، من صناعة ابليس. ـ هذا الشعب تستفزّه الحمى والسرطان. والمقعدون والشيوخ هم من الوقار بحيث يدعون إلى سلقهم ـ. الرأي الأدهى أن أنزح عن هذه القارة حيث الطيش يحوس في طلب الرهائن لهؤلاء الأشقياء. إني ذاهب إلى المملكة الحقّة لأبناء حام.

وهل عرفت بعد الطبيعة؟ وهل أعرف نفسي؟ ـ كفى ثرثرة. إني أواري الأموات في أحشائي. صيحات، طبول، رقص، رقص، رقص، رقص، رقص! لست أرى حتى الساعة، ساعة نزول البيض إلى البر، التي سأهوي إلى العدم.

جوع، ظمأ، صراخ، رقص، رقص، رقص، رقص، رقص.

* * *

البيض ينزلون. المدفع! يجب الامتثال للعماد، واللباس، والعمل.

لقد نفذت إلى قلبي بركة السماء. آه! وما كنت لأتوقعها!

لم اصنع شرّاً قط. وستصبح أيامي يسراً، ولن تكون بي حاجة إلى التوبة. لن أقاسي عذاب النفس شبه الميتة في وجه الخير، حيث

يرتفع النور القاسي كالشموع الجنائزية. مصير أحد أبناء الأسرات، تابوت قبل الأوان تغطيه دموع رقراقة. ولا جدال في أن العربدة حماقة، والاثم حماقة؟ ولا بدّ من قذف العفن بعيداً. ولكن لن يكون بوسع الناقوس أن يوقف دقاته إلى أن تأزف ساعة الألم المحض! فهل سأحمل كطفل لالهو في الفردوس غافلاً عن كل شقاء!

أسرعوا! هلا من حيوات أخرى؟ ـــ الرقاد وسط الثراء مستحيل. فالثروة كانت دوماً ملكاً مشاعاً. الحب الالهي وحده يهب مفاتيح العلم. لا أرى الطبيعة إلّا مشهداً للخير. فوداعاً أيتها الأشباح والمثليات والأباطيل!

غناء الملائكة العاقل يصّاعد من سفينة النجاة: إنه الحب الالهي. ـــ حبّان! فقد أموت من الحب الدنيوي، أموت تفانياً. لقد تركت نفوساً سيشتد حزنها لفراقي! وقد اخترتموني من بين الغرقى؟ أفليس الباقون صحابي؟

فلتنقذوهمْ!.

لقد حلّ بي الهدى. العالم طيب. وسأبارك الحياة. وسأحب اخوتي. ليست هذه وعوْد صبية. ولا الأمل في النجاة من الشيخوخة والموت. الله مصدر قوتي، وإني أسبّح باسم الرب.

* * *

السأم لم يعد غرامي. وسورات الغضب، والعربدة، والجنون، تلك التي عرفت كل نزواتها وويلاتها، ـــ كل العبء قد

طرحته. فلنقدّر دون ذهول مدى براءتي.

لن يعود بوسعي أن أرجو العزاء من ضربة عصا على باطن القدم. وما أخال أني في طريقي إلى زفاف، والمسيح أباً لعروسي

لست أسير عقلي. قلت: يا رب. إني أريد الحرية في الخلاص: فكيف أدركها؟ لقد تخلّصت من أهوائي. فلم تعد بعد بحاجة إلى تعبد ولا إلى حب الهي. وما بي حسرة على عصر القلوب الرقيقة. لكل منطقه، زرايته ومحبته: وإني لأحتفظ بمكاني في قمة ذلك السلم الملائكي، سلم العقل والرشد.

أمّا السعادة المستقرة، المنزلية أو غيرها.. فلا، لست استطيع. إني شديد التفكك، بالغ الوهن. والحياة تزدهر بالعمل، حقيقة معروفة من قدم. غير أن حياتي ليس لها قرار، إنها تطير وتحلّق بعيداً فوق العمل، هذه البقعة العزيزة من العالم.

لكَمْ أصبحتُ شبيهاً بعانس، من خشيتي محبة الموت!

لو أن الله وهبني الهدوء السماوي، الأثيري، الصلاة، ـــ مثل القديسين القدماء. ـــ القديسون! يا لهم من أقوياء! والرهبان، يا لهم من سلالة من الفنانين من الخير أن تندثر.

مهزلة لا تنقطع! لتوشك براءتي أن تبكيني. الحياة هي المهزلة التي ينبغي أن يحركها الجميع.

* * *

كفى! ها هو ذا القصاص. ــ فإلى الأمام!

آه! إن رئتي لتحترقان، وصدغيّ يدمدمان! والليل يغشى عينيَّ، في رائعة هذا النهار والقلب. . . والأطراف. . .

إلى أين نسير؟ إلى المعركة؟ لكني خائر القوى!

والآخرون يتقدمون. الأدوات، الأسلحة. . والزمن! . . .

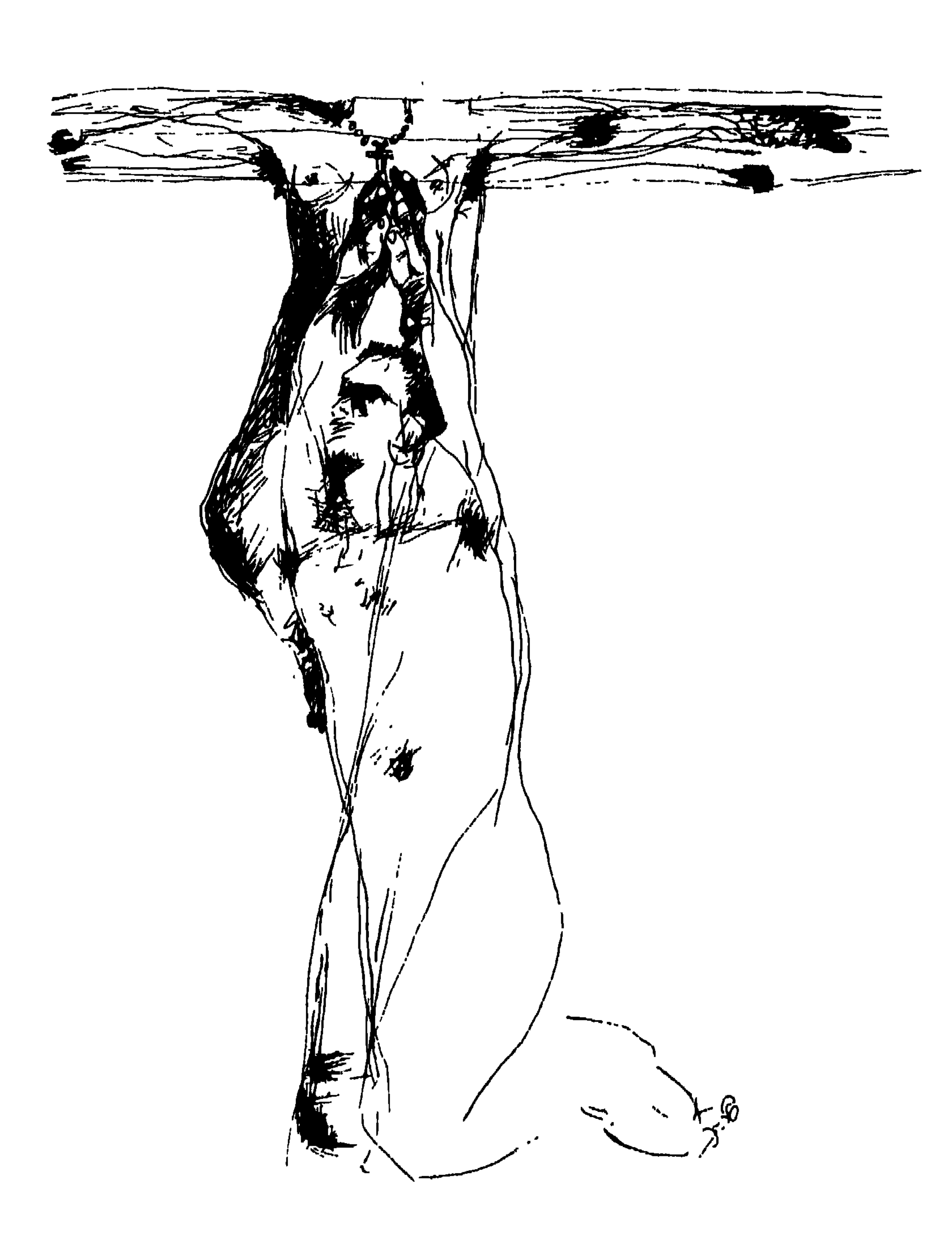
الرصاص!! اقذفوني بالرصاص. هنا! وإلاّ استسلمت. ــ يا للجبناء! ــ سأقتل نفسي! سألقي بنفسي تحت سنابك الخيل.

آه! . . .

ــ سوف أتعوّد ذلك.

وستكون تلك هي الحياة الفرنسية، سبيل الشرف!





ليلة الجحيم

ابتلعتُ جرعة هائلة من السم. ــ فلتبارك ثلاثا النصيحة التي أهديتها! إن أحشائي لتحترق. شدة السم تلوي أطرافي، وتمسخني، وترديني. إني أموت ظمأ. وأختنق، ولا أستطيع الصياح. إنه الجحيم، الدينونة الأبدية! انظرْ كيف يصّاعد اللهب. إني لأحترق كما يجب. يا لك من شيطان!

كنت أتوقع الهداية إلى الخير والنعيم، الخلاص. فهل أصفُ رؤياي، لكن جو الجحيم لا يحتمل التراتيل! تخيلتُ ملايين المخلوقات البديعة، وموسيقى روحانية عذبة، والقوة والسلام، والمطامع النبيلة، ولست أدري ماذا أيضاً. المطامع النبيلة!

وما زلنا في الحياة! ــ لو أن اللعنة كانت أبدية! إن امرءاً يريد أن يشوّه نفسه لهو امرؤ لعين حقاً، أليس كذلك؟ إني اعتقد أني في الجحيم، إذنْ فأنا فيه. بهذا يتحقق ما جاء في التعاليم المقدسة. إني أسير معموديتي. أيا والديّ، أنتما علّة نكبتي ونكبتكما. يا لي من بريء مسكين! ــ فالنار لا تعتدي على عَبَدَة الأوثان.

ــ ولم نزل في الحياة! وفيما بعد، ستزداد ملذات الدينونة عمقاً. أسرعوا، اسعفوني بجريمة، كي أهوي إلى العدم، وفقاً لشريعة البشر.

صمتاً، بل صمتاً!.. إنه العار والتبكيت هنا: فها هو ذا ابليس يقول إن النـار شيْنٌ، وان سورة غضبي بلاهة مريعة ـ كفى!.. أباطيل يوسوس بها إلّي، وشعوذات، وعطور زائفة، وألحان صبيانية. ـ مع أني أدرك الحقيقـة، وأبصر العـدالـة: لي حكم فـاصـل سليم، ومُهيّـأ للكمال... زهو وغرور. ـ أديم رأسي يجف. رحمتك يا ربي! إني خائف. ظمآن غاية الظمأ! لهفتي على أيام الصبا والعشب والبركة فوق الأحجار وضوء القمر عندما يدق الناقوس الثانية عشرة.. الشيطان في برج الناقوس في هذه الساعة. أيا مريم. أيتها العذراء...

ـ يا لحماقتي الشنيعة.

هنالك، أليست تلك نفوساً شريفة، تريد لي الخير؟... تعالوا.. فمي مكمم، هم لا يسمعونني، بل هم أشباح. ثم إنه ما من أحد يفكر أبداً في غيره. لا تقتربوا. إني أفوح برائحة الشواء، لا شك في ذلك.

الهلوسات لا حصر لها. هذا ما كان دائماً نصيبي: فقدان الايمان بالتاريخ ونسيان المبادىء. لن ابوح بكل سري: حتى لا يحسدني الشعراء وذوو الرؤى. إني مئات المرات الأوفر ثراء، فلنكن كالبحـر كتمانـاً وتقتيراً.

عجباً! لقد توقفت عجلة الحياة. لم أعد في العالم. ـ اللاهوت ليس هزلاً، فالجحيم في أسفل حقاً، والسماء في أعلى ـ نشوة، كابوس، رقاد في عشّ من لهب.

يا لدهاء أهل الريف في تيقظهم... ابليس، يا فرديناند، يطلق ساقيه للريح بالبذور الوحشية... المسيح يمشي على شجيرات العليق

القرمزية دون أن يلويها. . . وقد سار على المياه المضطربة. المصباح أرانا إيّاه واقفاً، أبيض بضفائر سمراء، على جانب موجة زمردية. . .

سأكشف عن الأسرار جميعاً: الأسرار الدينية أو الطبيعية، الموت، الولادة، المستقبل، الماضي، الكون، العدم. إني أستاذ في فن الشعوذة.

اصغوا إليّ! . . .

لديّ كل المواهب! ــ ليس هنا أحد وهنا أحد: لا أودّ بعثرة كنزي. ــ أتريدون أغاني زنجية، حوريات ترقص؟ أتريدون أن أختفي، أن اغطس بحثاً عن الخاتم؟ أتريدون؟ بوسعي أن أصنع ذهباً، وأدوية شافية.

فلتؤمنوا بي، فالايمان يعزّي ويهدي ويشفي. تعالوا جميعاً ــ حتى الأطفال، ــ لأعزيكم، ولأبذل لكم قلبي، ــ القلب الرائع! ــ أيها المساكين، أيها العمال! لست أطلب صلوات، تكفيني ثقتكم لأسعد.

ــ ولتذكروني، حتى لا أتحسّر على العالم. من حظي انْ لم يشتد عذابي. ولم تكن حياتي، واأسفاه، سوى طيش نزق.

أفٍ فلنعبسْ ونكشّر ونلوِ وجوهنا بكل ما وسعنا الخيال من كلمات.

من الجلي أننا خارج العالم. فما من صوت. وقد فقدت حاسة اللمس. واحسرتاه! على قصري وبلدتي وغابة سروي! العشيّات والغدوات والليالي والأيام. . يا لكللي!

كان ينبغي أن أنال جحيمي جزاء غضبي، وجحيمي جزاء صلفي، ــ فضلاً عن جحيم الشهوة، جوقة من ألوان الجحيم.

إني أموت وهناً. ها هو ذا القبر، إني ذاهب إلى الديدان، يا للشناعة! أيها الشيطان، أيها المهذار، تريد أن تتحلل أوصالي، بفعل سحرك. إني أطلب، إني أطلب! ضربة مذراة، أو قطرة نار.

آه! العودة إلى الحياة! أن نلقي بأبصارنا على عوراتنا. ثمّ هذا السم، هذه القبلة اللعينة. اللعينة!

يا لضعفي، يا لقسوة العالم! رحمتك يا ربي، خبّئني، لقد أفلت زمامي! — إني مختبىء وما أنا بمختبىء.

إنها النار يَسْتَعِرُ أوارها واللعين في جوفها.



هذيان!

العذراء الطائشة
والبعل الجهنمي.

أنصتوا إلى اعتراف إحدى رفيقات الجحيم:

«أيها البعل السماوي، أيا ربي، لا ترفضنّ اعتراف أتعس خادماتك. إني ضالّة. إني ثملة. إني نجسة. تبّاً لها من حياة!

«عفواً أيها الرب السماوي، عفواً! عفواً! كم من دموع سكبت! وكم من دموع سأسكب، فيما أرجو!

«وفيما بعد سأعرف البعل السماوي! لقد ولدت خاضعة له.
— أمّا الآن، فالبعل الآخر قد يضربني!

«اني الآن يا صديقاتي في عقر الدنيا! صديقاتي!. كلا، لستن صديقاتي.. ما عرفت قط مثل هذا الهذيان وذلك العذاب.. يا لها من حماقة!

«اواه! إني اتعذب، واصرخُ. إني في عذاب حقاً. مع انه لم يبق ما اتحرّج منه، أنا المثقلة بازدراء أجدر النفوس بالزراية.

«ليكنْ! والآن فَلأَبُحْ لكم بسرّي، حتى ولو اضطررت للعودة إليه فيها بعد عشرين مرة، هو هو في كآبته وفي تفاهته!

«إني أَمَةُ البعل الجهنمي، ذلك الذي أهلك العذارى الطائشات. هو ذلك الشيطان بالذات. ما هو بطيف، وما هو بشبح. ولكني أنا التي فقدت الرشد، أنا اللعينة الهالكة في نظر العالم، ـ لن يستطيع أحد قتلي! كيف أصفه لكم! لقد فقدت حتى القدرة على الكلام. إني في حداد، أبكي، في هلع!. نسمة من الهواء، يا ربي، لو سمحت، من فضلك!

«إني أرملة... ـ كنت أرملة... ـ أجلْ، كنت جادة فيما مضى، وما ولدت لأصبح رمّة!.. أمّا هو فكان لا يزال صبياً.. غير أن ألطافه الغامضة أغوتني، فنسيت كل واجبي الانساني وتبعته. ويحها من حياة! الحياة الحقة قد توارت. لم نعد في الدنيا. إني أذهب حيث يذهب، هذا واجب: وكثيراً ما يتحامل عليَّ، أنا المسكينة. يا للشيطان! ـ إنه شيطان لو تعلمون، وليس هو ببشر.

قال لي: «لست أحب النساء: إن الحب، كما نعلم، ينبغي أن يبتكر من جديد. فهنّ، النساء، لم يعد بوسعهن غير الرغبة في مقرٍ أمين. فإذا ما حزْنهُ غفلن الهوى والجمال، فلم يبق غير جفاء الازدراء، مؤونة الزواج في هذه الأيام، أو أرى نساء، على وجوههن مخايل الهناء، نساء كنت أستطيع، أنا، أنْ أجعل منهن خير الرفيقات، تفترسهنّ أولاً وحوش لها شعور النيران ملتهمة الزنادقة..».

«وأنصتّ إليه وهو يجعل من العار مجداً، ومن القسوة سحراً: «إني من أصل بعيد. فأجدادي من أقصى الشمال. كانوا يشقون

جوانبهم ويشربون دماءهم. ــ ولسوف أملأ بدني جروحاً وأغطيه بالوشم، كي أصبح كالمغولي قبحاً· ستريس، سوف أعوي في الطرقات. أريد أن أجن هياجاً. ايّاك أن تريني حلياً، وإلاّ ارتميت على الساط وتلويت. أريد ثروتي ملطخة بالدماء. ولن، لن أقبل عملاً..» وكثيراً ما طوينا الليل سويّاً، وقد استحوذ عليّ شيطانه، وكنت أعاركه! ــ وكثيراً ما يقف مخموراً لا يتزحزح وسط الطرق والديار، ليثير الرعب في قلبي. ــ «سوف يقطعون حقاً عنقي، وسيكون ذلك شنيعاً» وَيَجيء من تلك الأيام، حيث يريد أن يسير مكللاً بهالة الاجرام!

«وأحياناً يحدثني، بلهجة رقيقة، عن الموت الذي يجلب الندم، وعن المنكودين الذين لا ريب في وجودهم، وعن الأعمال الشاقة، وعن الفراق الذي يمزِّق القلوب. وفي الحانات حيث كنا نحتسي الخمر، كان يبكي إذْ يتأمل من حولنا صرعى البؤس. كان يأخذ بأيدي السكارى المتعثرين في الطرقات المظلمة كان يعطف عطف أم ماكرة على صغار الأطفال. ــ ثمّ ينصرف في رقه صبيّة ساعة الصلاة.

ــ وكان يتظاهر باحاطته بكل شيء، التجارة والفن والطب ــ فتبعته، كما يجب.

«كنت أبصر الزخرف الذي جمعه، في الخيال؛ حوله: الثياب والتحف والطنافس، بل لقد خلعت عليه من عندي سلاحاً ووجهاً اخر. كنت أرى كل ما يمسّه على نحو ما أراد أن يخلقه لنفسه وحين يعطل خيالي، كنت أتبعه وأرقبه في أفعال معقدة عجيبة، طيبة أو خبيثة: وقد نشت من دخول دنياه فلكمْ من ساعات أمضيتها في الليل ساهرة، بجوار

جسده الراقد العزيز، أسائل نفسي عمّا يدفعه هذا الدفع إلى الفرار من الواقع. لم ينذر انسان نفسه قط لما نذر له نفسه. وأدركت، ـ دون أن أخشى شيئاً عليه، ـ أنه ربما كان خطباً جللاً على المجتمع. ـ فلعلّ لديه السر الذي يغيّر الحياة! لكني قلت لنفسي: كلا، إنما هو يدور في البحث عنه على أن محبته مسحورة، وإني لربيقتها. وما كان لنفس غيري أن تملك من القوة، ـ قوة اليأس، ـ ما يكفي لتحملها، ـ حتى يبسط عليها جناحه ويطويها بحبه. ثمّ ما كنت لأستطيع تصوره في رفقة نفس أخرى: فما ترى حوله غير مَلَكيه، ولا ترى قط، ـ فيما أعتقد، ـ مَلَكي نفسٍ أخرى. لقد كنت في قلبه كما لو كنت في قصر أُخلي من سكانه حتى لا ألقى فيه مخلوقاً في مثل خستك: هذا كل ما في الأمر. كنت حقاً، واأسفاه، تابعة له. ولكن ما علّه كان ليريد بحياتي الخائرة الكابية؟ لم يزدني فضلاً، إنْ لم يجلب لي الموت! وأحياناً كان يستبد بي الأسى والحنق، فأقول له: «إني أفهمك»، فلا يجيبني سوى بهز منكبيه.

«وهكذا مع تجدد أساي بلا انقطاع، وتزايد ضلالي في عينيّ ـ وفي عيني» كل مَنْ كان ليتفضل بالتحديق فيّ، لو لم يكن محكوماً عليّ بالنسيان المطلق. ـ أخذ يشتد ظمأي إلى خيراته. بقبلاته وعناقاته الحميمة، كنت أنفذ حقاً إلى سماء، سماء حالكة، وددت لو تُركت فيها فقيرة صماء خرساء عمياء، وبدأتُ آلفُ ذاك. كنت أرى نفسينا كطفلين، تُركا ليمرحا في جنان الشجن. كنا على وفاق، نعمل في نشوة معاً. ولكنه، بعد عناق أخّاذ، كان يقول: «كَمْ سيبدو لك عجيباً، بعد أن أفارقك، كل ما مررت به. عندما تفتقدين ذراعي تحت عنقك، وقلبي الذي تأوين إليه، وهذا الفم الذي يلثم جفنيك. فلا بدّ أن ارحل، بعيداً، يوماً ما. ولا بدّ أن أساعد في ذلك آخرين: هذا واجبي. ولو أني لا أشتهيه البتة.. يا عزيزتي...». وعلى الفور كنت أحس بنفسي، بعد فراقه، فريسة

الذهول، هاوية إلى أرهب الظلمات: إلى الموت. فأخذت عليه العهد ألاّ يهجرني. بل لقد أكّد هذا العهد ـ عهد العاشق ـ عشرين مرة. لكن عهده كان من الهزل مثل ما كنت حين قلت: «إني أفهمك».

آه! ولم أكن قط غيورة عليه. ولا أعتقد أنه سيهجرني. فما علّه يصبح؟ وهو لا يعرف أحداً: ولا يريد أن يعمل أبداً. إنه يريد أن يحيا كالسائر وهو نائم. أفَهَلْ تكفي محبته وطيبته وحدهما جوازاً إلى واقع الحياة؟ وفي بعض اللحظات، أنسى الوهدة التي انحدرت إليها: وأعلل نفسي. سوف يهبني القوة، وسنرحل، ونصطاد في الصحراء، ونرقد على جوانب الطرقات في المدن المجهولة، بلا رعاية ولا أشجان. أو لعلّني سأستيقظ يوماً، وإذْ بالقوانين والعادات قد تبدّدت ـ بفعل سحره ـ فخلّتني الدنيا وهي على حالها، لشهواتي وأفراحي ولا مبالاتي. . آه! لو كافأتني، فلكَمْ تعذبت، بما تصفه كتب الأطفال من حياة المغامرات. لكنه لا يستطيع. وإني لأجهل غايته. قال لي إن في قلبه حسرات وأشواقاً: لكن ذلك لا ينبغي أن يكون من شأني. أفَهَلْ يخاطب الله؟ لعلّه ينبغي أن أتوجّه إلى الرب. إني في قاع الهاوية، ولم أعد أقدر على الصلاة.

«وهَبْه شرح لي أشجانه، أفَهَلْ أفهمها خيراً من سخرياته؟ إنه ليحمل عليّ، ويصرف الساعات ليخجلني من كل ما شغل في الحياة قلبي. فإذا ما بكيت امتعض وتبرّم.

«ـ أرأيت إلى هذا الشاب الأنيق يدخل البيت الهادىء الجميل: إنه يدعى ديفال أو ديفور أو أرمان أو موريس، لست أدري! لقد بذلت امرأة قلبها لهذا الخبيث الأبله: فلقيت حتفها، وهي الآن دون ريب قديسة في السماء. ولسوف تميتني مثلما أمات هو

تلك المرآة. ذلك هو مصيرنا نحن المحسنين الأبرار. .». واأسفاه! في بعض الأيام كان يرى الأناس الناشطين جميعاً الاعيب تحرّكها نزوات مسخاء: فيضحك ضحكاً متواصلاً مريعاً. ــ ثمّ يعود فيحنو عليّ كأم شابة أو أخت حبيبة. ولو كان أقل وحشية، لنجونا! ولكن لطفه أيضاً قاتل. وأنا بين يديه. ــ ويحي! إني لمجنونة!

«ولعلّه سيختفي يوماً بأعجوبة: ولكن ينبغي أن أعلم، إذا كان سيرتفع إلى السماء، لأشهد شيئاً من صعود الحبيب».

يا لها من رفقة!

هذيان ٢
كيمياء الكلمة

أمّا عن نفسي، فهاكم شيئاً من هوسي:

زهوتُ منذ أمدٍ بعيد بقبضتي على جميع آفاق الحياة والخيال، ولم أضمرْ لأعلام الشعر والفن في هذا العصر غير الأزدراء.

ولعت بالتصاوير السخيفة، والنقوش فوق الأبواب، وزخارف المهرجين، والتزاويق الشعبية، وبالأدب الذي عفا عليه الزمن، ولاتيني الكنائس، والكتب الفاحشة المحشوّة بأغلاط الهجاء، وحكايات جدات جداتنا، وقصص الجنيّات، وكتيبات الأطفال، والأوبرات العتيقة، والأغاني السقيمة، والألحان الساذجة.

وحلمتُ بحروب جهاد، ورحلات كشف لم تُروَ، وجمهوريات ليس لها تاريخ، ومعارك دينية قُمعت، وثورات في العادات والتقاليد، وتنقلات شعوب وقارات. آمنت بسحري المفاتن جميعاً.

واخترعتُ ألواناً للحروف المتحركة! ـ فالألف سوداء، والواو زرقاء، والياء حمراء ـ وسويت أشكال الحروف الصائتة وحركّتها، وبإيقاعات غريزية، تباهيتُ بابتكار لغة شعرية ستصبح يوماً في متناول جميع الحواس. وبقيت الترجمة.

وبدأت بدراسة كتبت السكنات والظلمات، ودوّنت ما لا يوصف، وسجّلت دوار النشوات.

*

بعيداً عن الطيور والقطعان والقرويات،
ما علّني كنت أشرب، جاثياً في هذا الخلاء،
وسط أشجار البندق الغضّة،
في ضباب عصر دافىء أخضر؟
وماذا كان بوسعي أن أشرب في هذه البقاع،
ــ دردار بلا صوت، عشب بلا زهر، سماء مكفهرة! ــ
من هذا اليقطين الأصفر بعيداً عن خصّي العزيز؟
شراب من ذهب يصبّب العرق.

كنت أشبه بلافتة حانٍ مريبة،
ــ وهبت عاصفة فاكتسحت السماء. وفي السماء
ضاعت مياه الغابة على الرمال العذراء،
وقذفت ريح الله المستنقعات بجليد؟

وبينما أنا أبكي، أبصرتُ الذهب ــ فما استطعت أن أشرب ــ

*

في الصيف حتى الرابعة صبحاً،
نومة العشق تدوم،
ويفوح تحت الخمائل
أريج وليمة المساء.

هناك في المتجر المتسع
تحت شمس «الهسبريد»،
قد شمّر الصناع عن السواعد،
بل شرعوا يتجرون.

هادئين في صحرائهم الطحلبية،
يعدّون للسقائف البهية،
حيث المدينة،
ستنقش سماوات مزيفة.

آه، من أجل أولاء الكادحين،
رعايا ملك بابلي فاتنين،
فازقِي أيا ربة الحب العاشقين،
ذوي القلوب المتوجّه.

أيا ملكة الرعاة!
احملي للصناع ماء الحياة،

كي تظلّ قواهم في سلام
في انتظار تمام البحر في الظهيرة.

*

وكان للصيغ الشعرية العتيقة نصيب كبير في كيميائي اللغوية.

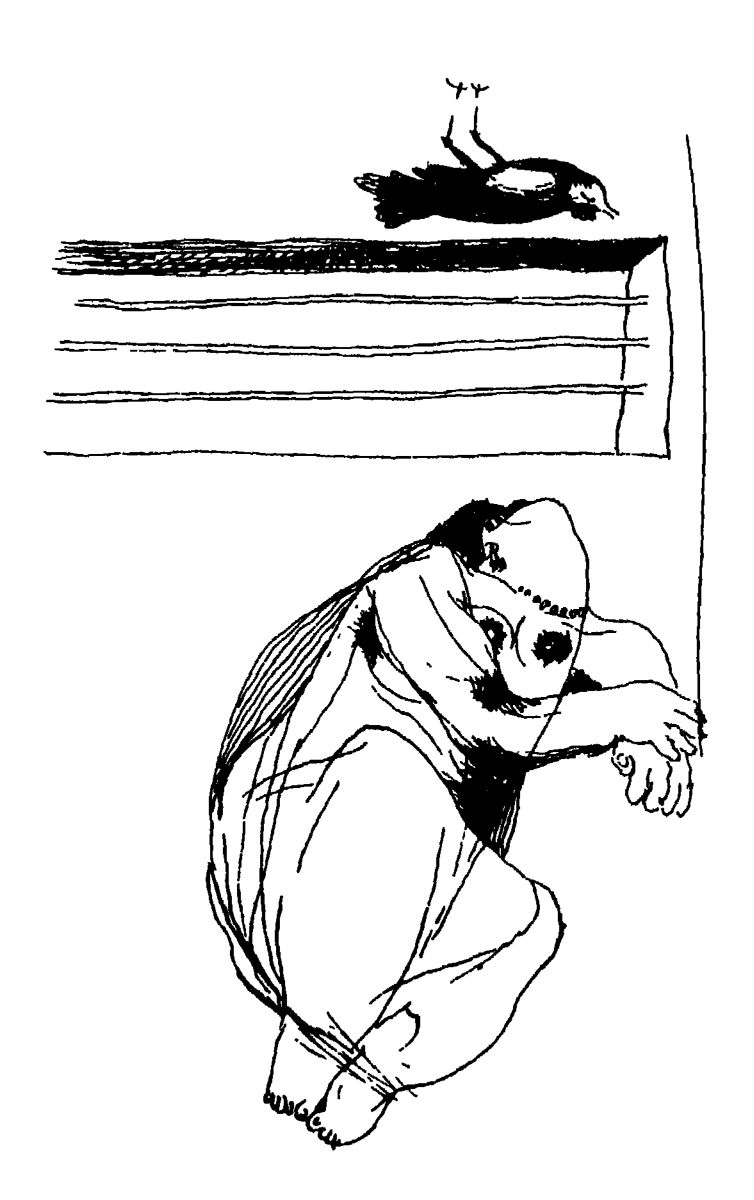
وتعوّدت الهلوسة الصرف: فأبصرتُ جلياً مسجداً في مكان مصنع، ورأيت مدرسة للطبالين تنشئها الملائكة، وعربات تجـرّها الخيول تخترق مسالك السماء وبهواً في قاع بحيرة، ثمّ الغيـلان، والطقوس السرية، وقد يكفي عنوان فودفيليه ليثير أشباحاً مفزعة أمام ناظري.

ثمّ شرحت سفسطائي السحرية بهلوسة الكلمات!

وانتهيت فرأيت خللي أمرا مقدساً. كنت عاطلاً،

فريسة حمّى قادحة: فحسدت البهائم في نعيمها، ــ واليرقات التي تمثل طهارة الأعراف، والمناجذ، وغفوة العذرية!

واحتـدّ طبـعي. فـقلتُ وداعـاً لـلعـالم في ضـروب من الرومانسيات:



أغنية البرج الأعلى

فليُقبل، فليُقبل
الزمن الذي نتعشقه

لكَمْ صبرت صبرا
لن أنساه للأبد،
الآلام والمخاوف
في الهواء تبخرت
والظمأ المدنس
يعكّر دمي.

فليُقبل، فليُقبل
الزمن الذي نتعشقه

مثل المروج عليها
النسيان انسدل،
نمت وازدهرت

بالبخور والزُوَان،
يطن فيها طنيناً
ذباب قذر

فليُقبل، فليُقبل
الزمن الذي نتعشقه

واغرمتُ بالصحراء والبساتين المحترقة والحوانيت المندثرة والخمور الماسخة. وتسكعتُ في الأزقة النتنة، ووهبتُ نفسي، مغمض العينين، إلى الشمس، إله اللهب.

«أيها القائد، إنْ كان قد بقي مدفع عتيق بين حصونك المحطمة، فاقذفنا بجلاميد. واقذفْ زجاج المتاجر الفاخرة! — والقاعات حيث يجلسون! أطعم القوم الرغام، ودسّ السم في الشراب، واحشِ المخادع ببارود ياقوت متقد..»

ويحها بعوضة تحوم نشوى فوق مبولة الخان، ولهى برشمها، ويكفي شعاع ليبيدها!

جوع

إذا اشتهيت، فما اشتهي
سوى الأرض والحجر.
طعامي من الهواء دوماً،
ومن الصخر والفحم والحديد

يا جوع دُر، ارعَ يا جوع
كلأ القشور،
وانتزع من متسلقات الفروع
بهيج السموم.

كل الحصى المهشّم
وقديم أحجار الهياكل؛
متخلّف الطوفان من حصبه
خبز منثور في الوادي القاحل

*

الذئب تحت الغصون عوى
وهو يبصق الريش المؤتلق
بعد أكلته من الطيور:
وكالذئب اني أحترق.

الخضروات والفاكهة
لا تنتظر غير القاطف
لكن العنكبوت
لا يأكل غير العوسج.

فلأرقدْ أو اشتعل
على مذبح سليمان.
الحساء على الصدأ جرى،
وامتزج بالبحر الميت.

وأخيراً، يا لغبطتي وحكمتي، نحّيت عن السماء لازْوَردها، الـذي هو أسـود وعشت، ومضة ذهبيـة، بالنـور الطبيعي. ومن بهجتي، تصنعت المجون والتيهان بقدر ما استطعت:

وجدتها!
ما هي؟ الأبدية.
إنها البحر مختلطاً
بالشمس.

روحي الخالد،
حافظ على عهدك
بالرغم من عزلة الليل
والنهار المتقد.

وبذا تنعتق
من أحكام البشر
وعاميّ الفتن
فتطير على حسب...

... اياك والأمل
لا d'orietur
علم وصبر
العذاب حُتم.

لم يعد ثمة غد،
جمر لطيف الملمس،
توقّدك
هو واجبك.

وجدتها!
ما هي؟ الأبدية
إنها البحر مختلطاً
بالشمس.

واضحيت أوبرا أسطورية: فرأيت أن الخلق جميعاً محكوم عليهم بالسعادة: والنشاط ليس هو الحياة، وإنما هو أسلوب في الاخلال ببعض القوى، اختلال عصبي والأخلاق هزال في الأمخاخ.

وتراءى لي أن لكل مخلوق حقاً في عدة حيوات أخرى. فهذا السيد يجهل ما يفعل: إنه مَلَك. وهذه الأسرة ذرية كلاب. وقد تحدثت أمام العديد من البشر، بصوت مرتفع، مع لحظة من إحدى حيواتهم الأخرى ـــ ومن ثمّ، أحببت خنزيراً.

•

لم اغفل أية واحدة من سفسطات الجنون ـــ الجنون الذي يسجن ـــ : وفي قدرتي أن أتلوها جميعاً، فإني أحفظ طريقتها.

•

وتعرّضت صحتي للخطر. وأقبل عهد الارهاب. فكنت أهوي في غفوات تدوم أياماً، فإذا ما استيقظت، لم تنقطع أحلامي البالغة التعاسة. ونضجت للموت، فقادني ضعفي، خلال طريق تحفّ به المهالك، إلى تخوم العالم و«السيمريّة»، موطن الظلمات والأعاصير.

فكان لا بدّ أن ارحل، لأفرِّج عن ذهني ما تواطأ عليه من غوايات. وفي وسط البحر، الذي أحببته كما لو كان سيطهرني من نجس، رأيت اشراقة الصليب واهب العزاء. وكان قوس قزح هو الذي جلب عليّ اللعنة. غير أن النعيم كان قدري المحتم، كان دودتي ووسواسي: فحياتي ستظل دوماً أحفل وأرحب من ان تُكرَّس للقوة والجمال.

يا للنعيم! لقد كشّر لي عن نابه، الحلوة عند الموت، ساعة صياح الديك، من matutinum حتى Christus venit ـــ في أحلك المدن:

أيا فصول، أيا قصور!
أيّ نفس بغير عيوب؟

قمت بدراسة سحرية
للسعادة الحتمية

تحية له كل مرة
يصيح فيها ديك الجنوب.

آه! لن تبقى لي شهوة!
إذْ تولىّ هو أمري.

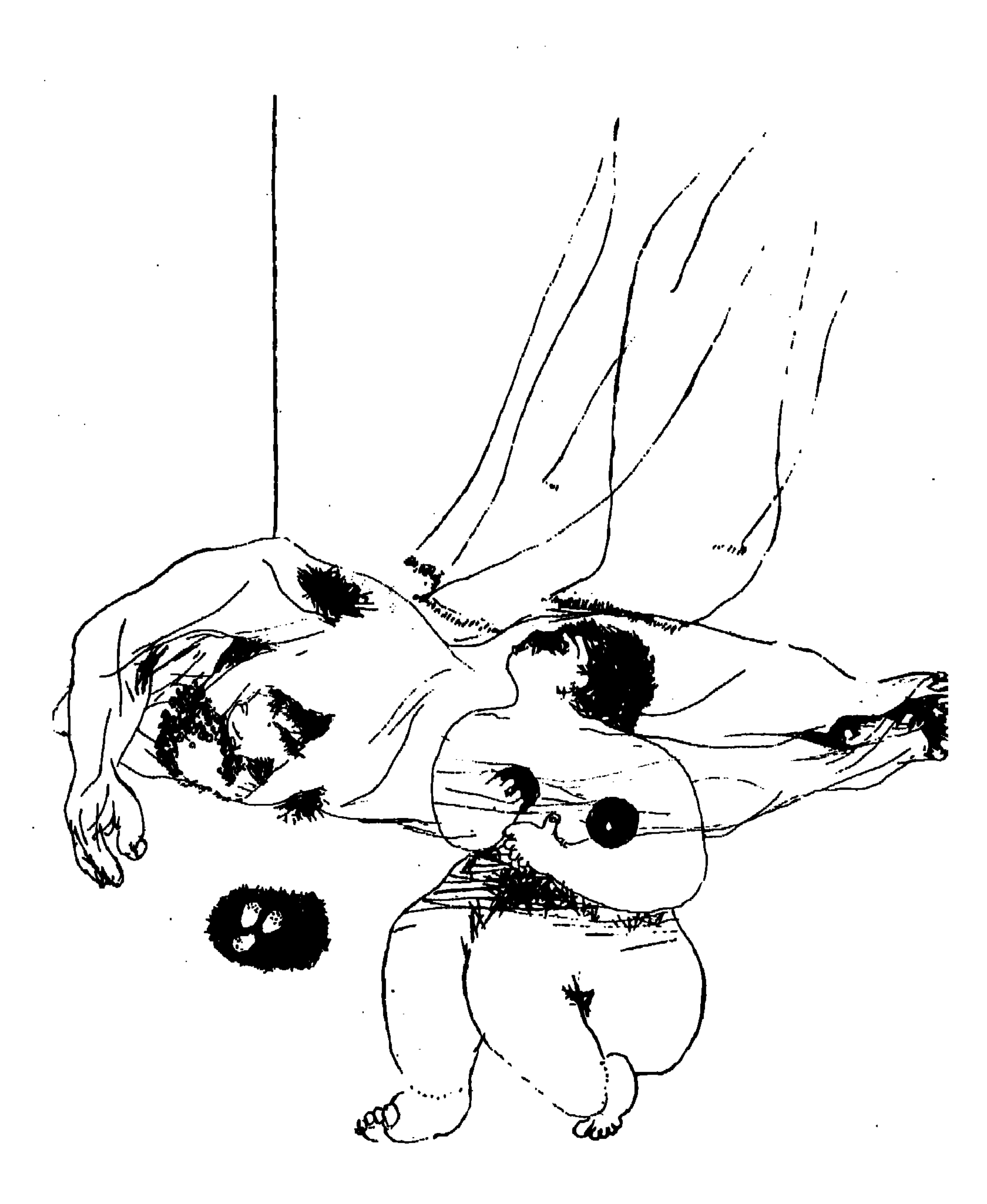
استحوذ السحر عليّ
فبدد كل جهد.

أيا فصول، أيا قصور!

ساعة الفرار ويحي!
ستكون ساعة حتفي.
أيا فصول، أيا قصور!

*

وقد مضى كل ذاك، وتعلّمت اليوم تحية الجمال.



المستحيل

آه! لحياة صباي، الطريق المطروق في جميع الأجواء، رصين فوق الطبيعة، أخلص طوية من خير الشحاذين، فخور بالتجرد من الأوطان والصحاب، ما أبلهها من حياة. ــ واليوم فقط أدركت ذاك!

ــ كنت على حق في زرايتي بأولئك القوم الذين ما كانوا ليفلتون فرصة قبلة أو عناق، المتطفلين على نظافة ونضارة نسائنا، وهنّ اللواتي أصبحن اليوم معنا على أقل وفاق.

لقد كنت على حق في كل ما ازدريت: ما دمت قد هربت!

أأنا هارب

دعوني أشرح الأمر.

بالأمس، عدت أتنهّد: «يا لنا من حشد من الملاعين في هذه الدنيا! إني من زمن طويل في زمرتهم. وأعرفهم جميعاً. كل منا يميز الآخر، إذ كل منا ينفر من الآخر. وكلنا يجهل المحبة. ولكننا مهذبون؛ فصلاتنا بسائر الناس لا غبار عليها». أهذا يثير الدهشة؟ الناس! التجار، الأغرار! ــ لم نوصم بعار ــ. لكن الصفوة من

المختارين، كيف سيستقبلوننا؟ فثمّة جفاة فرحون، مختارون زائفون، ما دام الاقتراب منهم يتطلّب الجسارة أو التذلل وهم وحدهم المختارون. وما هم ممَّنْ يمنحون البركات!

والآن وقد عاد إليّ درهمان من الحكمة ـ لن يدوم هذا طويلاً! ـ فإني أرى أن مصدر متاعبي أني لم أنتبه من قبل إلى أننا نعيش في الغرب. في المستنقعات الغربية وليس ذلك لأني اعتقد أن النور قد تلوّث، والقالب قد تهلهل، والحركة قد انحرفت... حسناً! وها هو ذا ذهني يطلب في اصرار أن يتولى أمر التطورات القاسية جميعها التي انتابت الروح منذ انهيار الشرق... إن ذهني لمشتاق!... ها قد نفد درهماي من الحكمة! ـ إن الروح لطاغية، وإنها لتريد أن أظلّ في الغرب. فلا بدّ من كتم أنفاسها حتى انتهي إلى حيث أردت.

ـ وبعثت إلى الجحيم بأكاليل الشهداء، وأنوار الفن، وزهوّ المخترعين، وحميّة النهابين؛ ورجعت إلى الشرق وإلى الحكمة الأولى السرمدية.

ـ لكن يبدو أن هذا هو حلم خامل كسول!

ومع ذلك، فما منّيت نفسي قط بلذّة الزوغان من شقاوات العصر.

ـ ولكن أليس ثمة عذاب حقاً، في أنه منذ اعلان العلم ذاك، المسيحية، والانسان يعبث بنفسه، يأتي لنفسه بالبراهين على ما لا يحتاج إلى برهان، ويتلذذ بتكرار هذه البراهين، ولا يعيش إلاّ

كذلك؟ تعذيب رهيف، أبله، وهو مصدر زيفي وضلالي. إن الطبيعة قد يتولاها السأم، ربما.. لقد ولد السيد «برودوم» مع السيد المسيح.

أليس ذلك لأننا نزرع الضباب. إننا مع الخُضَر نلتهم الحمى. وماذا عن الخمر! والتبغ! والجهل! والتفاني! ـ أهذا كله غريب عن حكمة الشرق، الموطن الأول؟ وما حاجتنا إلى عالم عصري، ما دامت مثل هذه السموم تخترع!

سيقول الكهنة: فهمنا. لكنك تقصد جنة عدن. ولن تجد شيئاً يعنيك في تاريخ شعوب الشرق. ـ وهذا حق؛ إنها الجنة ما ابتغيت. فماذا يجديني عن طهارة الأقدمين!

وسيقول الفلاسفة: ليس للعالم عمر. كل ما في الأمر أن الانسانية تنتقل. إنك في الغرب، لكنك حر في الاقامة في الشرق الذي تريد، مهما يكن قدمه، ـ بل وتستقر فيه. فلا تستسلمنّ للهزيمة أيها الفلاسفة إنكم من صلب الغرب.

احترسْ، يا ذهني. ايّاك والتدابير المعتسفة في سبيل الخلاص. اقدح زندك. ـ واحسرتاه من بطء خطى العلم!

ـ لكني ألاحظ أن ذهني قد هجع.

ولو أنه ظلّ متيقظاً من هذه اللحظة، لوصلنا بعد قليل إلى الحقيقة، التي ربما كانت ترفرف حولنا بملائكتها الباكية!...

ـ ولو كان قد ظلّ متيقظاً حتى هذه اللحظة، لما استسلمت،

من زمن سحيق، الغرائز الوخيمة!... ـ ولو أنه كان دائم اليقظة، إذنْ لسبحت في بحار الحكمة!...

يا للصفاء! الصفاء!

إن هذه اللحظة من اليقظة هي التي وهبتني رؤيا الصفاء!

ـ فبالروح تصل إلى الله!

حظ عاثر!



البارقة

العمل البشري! إنه الانفجار الـذي يضيء إلى حين ليـلي المدلهمّ.

«لا شيء عبث؛ فإلى العلم، وإلى الأمام»! هكـذا يصيح الكاهن العصري، أي كل الناس. ومع ذلك تجثم جثث الأشرار والتنابلة فوق صدور الآخرين... آه! اسرعوا، اسعفوني بقليل؛ فهنالك، عبر الدجنة، تنتظرنا المثوبة الأبدية... فهل نضيّعها؟..

ــ ماذا أستطيـع؟ لقد خبـرت العمل؛ والعلم وئيـد وئيد الخطى. أمّا أن الصلاة تركض والنور يزمجر... فهذا ما أعرفه خير المعرفة. إنه أمر هينّ والقيظ شديد؛ فليستغنوا عني. لديّ واجبي، وسأزهو مثل الكثيرين، بطرحه جانباً.

حياتي قد رثت. فهلمّوا! لنداج ونتبالد، ويحنـا! ثم نعيش لاهين، حالمين بصبابات مهولة وعوالم باهرة، متذمرين متـطاحنين حول مظاهر الكون، مهرجين، شحاذين، فنانين، قطاع طرق، ــ كهنة! على فراش مرضي عاودتني رائحة البخور عابقة قوية؛ حارس الطيوب المقدسة، كرسيّ الاعتراف، والشهيد...

إني لأتبين في ذلك سوء تربيتي صبياً. ثمّ ماذا! .. هل أمشي

في العشرين، إذْ يمشي في العشرين غيري .

كلا! كلا! إني اليوم ساخط متمرد على الموت! والعمل أهون من ان ترضاه كبريائي . إنه سيجعل من حياتي للعالم عذاباً قصير الأجل في اللحظة الأخيرة، سوف أسطو على اليمين وعلى اليسار . .

ـ اه ـ

وبذلك، أيا أيتها النفس العزيزة المسكينة، سوف لا نخسر الأبدية!



صباح

ألَمْ يحدث أني كنت يوماً فتى ظريفاً، مقداماً، تسطَّر سيرته الرائعة على صفحات من ذهب، ـ مفرط الحظ! فأي وزرٍ ارتكبت، أي خطيئة اقترفت، حتى استحققت كبوتي الراهنة؟ يا مَنْ تزعمون أن الحيوانات تنحدر من مآقيها دموع الأسى، وأن بعض المرضى يستبدّ بهم اليأس، وأن الموتى ينزعجون بالأحلام، حاولوا أن ترووا قصة سقطتي ورقادي. أمّا أنا، فما أستطيع الافصاح خيراً من الشحاذ الذي لا يكفّ عن التمتمة. يا رب، يا مريم... لم أعد أستطيع الكلام!

على أني أعتقد أني قد أتممت اليوم قصة جحيمي. كان هو الجحيم حقاً؛ الجحيم القديم، ذاك الذي فتح ابن الانسان أبوابه.

من الصحراء ذاتها، إلى الليل ذاته، تنفتح دائمًا عيناي الكليلتان على النجم الفضي، دائمًا، دون أن ينبهر به ملوك الحياة، المجوس الثلاثة، القلب، والروح، والذهن. فمتى سنروح لنحتفي، فيما وراء القفار والهضاب، بمولد العمل الجديد، والحكمة الجديدة، بفرار الطغاة والأبالسة، بنهاية الخزعبلات، ونحتفل ـ أول الناس! ـ بعيد الميلاد على الأرض؟

ترانيم السموات، وتقدم الشعوب! نحن العبيد، ينبغي ألّا نلعن الحياة.



وداع

أأقبل الخريف! ـ ولكن لماذا نتحسّر على شمس أبدية، ما دمنا في سبيل الكشف عن البهاء الالهي، ـ بعيداً عَمَّنْ يموتون عند نهاية الفصول.

الخريف. شراعنا السابق وسط الضباب الساكن ينحرف نحو مرفأ الشقاء، المدينة الشاسعة ذات السماء الملطخة بالنار والوحل. آه الأسمال العطنة، والخبز المبتل بالمطر، والخمر، والألف صبابة التي صلبتني! أما من نهاية لهذه «الغولة» ملكة الملايين من الأرواح والأجساد الميتة، والتي ستسأل يوم الحساب! أعود فأرى نفسي وقد تآكل جلدي بالوحل والطاعون، ورَعَت الديدان في رأسي وتحت ابطي، مع ديدان أكبر في قلبي، الممدّد بين مجهولين لا عمر لهما، ولا عاطفة... كان يمكن أن ألقى في ذلك حتفي... يا للخاطر المرعب! إني لأقشعر من البؤس.

وأخشى الشتاء لأنه فصل الراحة!

ـ وأحياناً أرى في السماء شواطىء لا نهاية لها تغصّ بأمم بيضاء مسرورة. وأرى من فوقي مركباً ذهبياً ضخماً تخفق راياته المتعددة الألوان مع نسيم الصباح. لقد ابتدعت الأعياد جميعاً،

وأكاليل الغار جميعاً، والـدرامات جميعـاً. وسعيت لابتكار أزهـار جديدة، ونجوم جديدة، وأبدان جديدة، ولغات جديدة. وحسبت أني اكتسبت قدرات خارقة. والآن! عليَّ أن أدفن خيالي وذكرياتي! مجد شاعر وراوٍ تذروه الرياح!

أنا! أنا الذي حسبت أني عرّاف او ملاك، وأني معفى من قواعد الأخلاق جميعاً، ها أنذا قـد هويت إلى الأرض، وأمـامي واجب أسعى إليه، وواقع وعر عليَّ أن أحتضنه! فلاح!

هل أخدع نفسي؟ هلاّ سألقى مع المحبة حتفي؟
ليكنْ، سأطلب المغفرة إذْ تقوتُ بالضلل. هلموا.
ولكن، ما من يدٍ صديقة! فأين ألتمس الغوث؟
أجل، الساعة الجديدة هي على الأقل شديدة الصرامة.

*

إذْ بوسعي القول إني أحرزت النصر: صرير الأسنان، وفحيح النيران، والتنهدات الكريهة أخذت تهدأ. والذكريات الزرية جميعها أخذت تمّحي. وحسراتي الأخيرة تندثر، ـــ غيرتي من الشحاذين وقطاع الطرق وأصدقاء الموت والمتخلفين من جميع الأنواع. ـــ أيها الملاعين، ماذا لو انتقمت.

يجب أن نكون عصريين اطلاقاً.

لا ترانيم: فلنتمسكْ بما كسبناه. ليلة قاسية. الدم الجاف يدخن على وجهي وليس ورائي غير هذه الشجيرة الشنيعة. . . لا تقلّ معركة النفس عن معركة البشر وحشية؟ لكن رؤية العدالة متعة

الله وحده.

على أننا لم نزل في العشية. فلنتلق كل نفحات القوة والحنان الحقيقي وعند الشفق، سندخل، مسلحين بصبر متقد، المدن البهية.

وما حاجتي إلى يد صديقة! مزيّة عظيمة، أنّ بوسعي أن اضحك من الصبابات الكاذبة القديمة، وأنزل العار بأولئك الأزواج الكاذبين، ــ لقد رأيت جحيم النساء هناك؟

ــ وسيُتاح لي أن أمتلك الحقيقة في روح وجسد.

(ابريل ــ اغسطس ١٨٧٣)

